

السلوانة الثانية

سلوانة التأسى

أنزل الله ربنا تَقْدِسَ اسْمُهُ من السورة المذكور فيها الأحزاب آيات معجزات طبقن المفصل المقصود بهذا الكتاب وهو تأسى الملوك فى طوام العوام^(١) ، والله ربنا المحمود على الهداية إليها ، والدلالة عليها ، وذلك قوله سبحانه فى المتألمين^(٢) على خليفته فى أرضه ، الداعى إلى مندوبه وفرضه ، صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(٣) [الأحزاب : ١٠] .

وقوله ﴿هَٰذَا كَيْفَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ١١] .
وقوله فى تردد من ضعفت بصيرته حينئذ ﴿وَيُظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب : ١٠]

وقوله فى نجوم النفاق وجرأة أهله على إظهار ما كانوا يسترونه حين رأوا أن المؤمنين قد ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديدا ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] .

وقوله فى القاعدين عن نصرة الحق المخللين من أراد نصره ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب : ١٨] وقوله فيهم ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقوله فى المتسللين لوإذا ﴿وَيَسْتَنَازِحِينَ فَرِيقَ مِنْهُمْ النَّبِيُّ يَقُولُونَ إِنْ أَبِيتُمْ عِزَّةً وَمَا هِيَ بِعِزَّةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقوله فى تجار أسواق الفتن الذين يتبعون كل ساع ، ويستجيبون لكل داع ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب : ١٤] .

وقوله فى تعجيز الفرار عن مغالبة القدر ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب : ١٦] .

(١) أى حسن أخلاق العوام .

(٢) نستألمون : مفردا المتألم وهم المحرضون المعاندون .

(٣) انظر تفسير سورة الأحزاب فى الدر المنثور للسيوطى (٣٤٦/٥) .

والتي بعدها ، وهو قوله سبحانه ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب : ١٧] .

فهذه جمل طوام العوام والامتحان بها ، ثم إن الله سبحانه دل من امتحن بها على ما أدب به رسوله ﷺ بقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ومما أدب الله به رسوله عليه السلام ، التأسى ، قال عز من قائل ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْتُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام : ٣٤] .

ثم عرف الله رسوله عليه السلام أن إضاعة التأسى وترك العمل به لا يجلب إليه حظا فقال ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

واعلم أن التأسى بهم مفترض عليه بقوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام : ٩٠] فهذا أمر جزم .

وروى أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ أَدْبَى أَدْبَى فَأَحْسَنَ أَفْئَى»^(١) .

فالتأسى مما أدب الله به رسوله بل مما افترضه عليه كما بيئنا ، ومعنى التأسى عند الأئمة أن تنظر إلى أسى غيرك ، أى حزنه ، وأنه مثل أساك ، أى مثل حزنك ، فتصبر . والأسى : هو الحزن ، ولا يعجبني هذا ، وهو عندي مأخوذ من قولهم : أسوت الجرح والجريح ، أى داويت ، والأسى : هو الطبيب المداوى ، فكان معنى التأسى : التطبيب والتداوى بالصبر ، والأسوة : اسم من هذا ، والتأسى : تفعل من الأسوة ، ولو كان على ما ذهبوا إليه لكان معنى التأسى ، التحزن نقول : أسيت ، أى حزنت ، وتأسيت أى تحزنت .

(١) أورده المناوى فى الفيض (٢٢٤/١) عن ابن مسعود وقال : إسناده ضعيف ، وقال السخاوى : ضعيف ، وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٣١٨٩٥) وعزاه لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود رضي الله عنه .

خبر نبوى فى التأسى

مما رويناہ أن النبی ﷺ قال : «انظروا إلی من أسفل منکم ولا تنظروا إلی من فوقکم ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله علیکم»^(١).

قال محمد عفا الله عنه : إن هذا الحديث لحسن الموقع مما نحن فيه ، ولا ينبغي أن يقصر لفظه عن إطلاق مفهومه وموجب عمومه ، والذي يوجب عمومه : أنه أمر لمن كان فى نعمة دقيقة بأن ينظر إلی من هو فى نعمة أدق منها ، وأمر لمن كان فى بلاء بأن ينظر إلی من هو أشد من بلائه ، فإنه دونه وأسفل منه فى حظ المعاناة المطلوبة ، وهذا المخفف عنه حظه أوفر وأعلى قدرا لنعمة منعم عليه ، ومحسن إلیه بما يفوق ما أنعم به على غيره ، وذو البلاء منعم عليه بنقص بلائه عن بلاء غيره ومعافاته من الابتلاء بتلك الزيادة التى ابتلى بها غيره ، وإنما كان هذا الخبر بليغا فى باب التأسى ؛ لأنه ينقل مستعظم البلاء الذى نزل به إلی أن يستصغره بإضافته إلی ما ابتلى به غيره ، ويخصه على ما فضله به من حظ العافية التى فضل بها على غيره ، وهذه درجة أعلى من درجة التأسى المطلق لأن التأسى المطلق لا يفيد حضا على شكر ، ولا يصور النعمة المخففة فى صورة النعمة ، وإنما يثمر الصبر خاصة ، وهذا الحديث يثمر الصبر ثم الشكر .

أسجاع وأبيات حكمية فى التأسى

التأسى جنة البلاء ، وسنة النبلاء درج الاصطبار^(٢) ، كما أن الجزع درك التبار^(٣) ، وإنه ينبغي لذى البصيرة أن يرى النعم فى صورة العواری المرتجعة^(٤) ، والودائع المنتزعة ، فمتى لم يفعل ذلك أعظم فقدھا ، وجور المنعم إذا استردها ، كما ينبغي له الإیذهل عن حظوظ جنسه منها ودولتهم فيها

(١) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الزهد والرقائق (٩) عن أبى هريرة . وذكره المتقى الهنـدى فى كـر العمال (٦٤٢٤) وعزاه للبيهقى عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٢) درج الاصطبار : مسالـكه وطرقه .

(٣) الهلاك .

(٤) العواری ، مفردها العارية : وهو ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده لك .

، فإذا زالت عنه وصارت إليهم لم ينكر منهم أخذهم أنصباءهم^(١) وتقاضيتهم
حظوظهم ، وليتأس بصبرهم عند حوزة^(٢) لها دونهم فيصبر لدولتهم الخالفة ،
كما صبروا لدولته السالفة ؛ لأن صدقة المتصدقين وإقراض المقرضين وضيافة
المضيفين ، وما يلتحق بذلك من ضروب المواساة في المال وفي القوة وفي
الجاه إنما ندب إليه المواسون فيه ليستيقوا العم بإعطاء الجنس حظوظهم منها ،
وفي هذه الجملة الحكيمة لمن تدبرها قنعان . والله المستعان .

أنشد في بعض الملوك لنفسه في حال شديدة نزلت به :

نَحْنُ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ بَطْشًا وَعِلْمًا وَلَنَا الْمُحْتَدُّ الْأَعْرَ^(٣)
ولنا أنقَسَ عوارفُ بالدهر تَأْسَى حِينَ الْأَسَى يُسْتَعَزَّ^(٤)

وحضرت عنده في يوم من أيام شدته ، فأنشدني لنفسه :

قَرَّبَنِي ذَهْرِي فَلَمْ يَلْقَنِي أَطْمَعُ فِي تَأْيِيدِ تَقْرِيْبِهِ
ثُمَّ نَبَا عَنِّي فَلَمْ أَجْزَعْ مِنْ إِصْنَاتِ تَعْذِيْبِهِ^(٥)
يَلْقَنِي

والحمد لله على حكمه

ثم قال لي : أجز ، فقلت : فقوتى منه وحولى به

وقال لي يوما وقد حادثته بما يبعثه على التأسي : أنشدني في ذلك شعرا ،
فأنشدته للخنساء :

أَلَا يَا صَخْرُ لَا أُنْسَاكَ حَتَّى أَفَارِقَ عَيْشَتِي وَأَزُورَ رَمْسِي^(٦)
وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِيْنَ حَوْلِي عَلَى أَحْبَابِهِمْ لَقَاتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى

فقال لي : هذا أخلق من طيلسان بن حرب ، اسمع ، وأنشدني لنفسه :

(١) الحصاة من الشيء أى أنصبتهم .

(٢) أى عند حصوله عليها .

(٣) المحتد : الأصل والنسب .

(٤) عوارف ، مفردا عارفة : وهو العالم بالشيء .

(٥) نبا عني : أعرض عني . إصنات تعذيبه : أى إحكام وشدة تعذيبه .

(٦) رمسى : قبرى .

نَفِيزُ كَمَا يَفِيزُ النَّيْلُ جُوداً وَنُقُودُ مِثْلِ إِقْدَامِ الْحُسَامِ (١)
وَإِنْ نَزَلَتْ بَنَّا كُبْرُ الرِّزَايَا تَأْسُفُتُنَا بِأَمْسِ الْفَلَاحِ
كِرَامِ (٢)

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل لما عزم سابور بن هرمز (٣) على الدخول إلى بلاد الروم متكرراً متحسناً نهاه نصحاؤه وحذروه التغرير بنفسه في أمر يمكنه أن يستتيب فيه فعصاهم .

وكان يقال : أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك ، وعشاق القينات (٤) من الشيوخ .

وكان يقال : إنما عسر صرف الأحداث عن غي الهوى إلى رشد الرأي لأمرين؛ أحدهما : قوة سلطان الشهوات عليهم ، والثاني : أن التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم ، ونو الحنكة (٥) بخلاف ذلك .

ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله ، وكان شيخاً ذا دهاء وحزم وسداد رأي وحنكة ، وبصر بالديانات واللغات ، وتبحر في العلوم وخبرة بالمكايد ، فسلم إليه سابور جميع ما يظن أن به إليه حاجة أو تدعوه إليه داعية ، وأمره أن ينحاز عنه في قرب منه ومراعاة لجميع أحواله في ليله ونهاره ، وتوجهها معاً نحو الشام (٦) ، فتزياً ذلك الوزير بزى الرهبان وتكلم بلسان الجلالة (٧) ، وتحرف بصناعة الطب الجراحى ، وكان معه

(١) الحسام : السيف القاطع .

(٢) الرزايا : مفردتها الرزينة وهى المصيبة .

(٣) سابور بن هرمز : ملك فارسى لقب بذى الأكتاف وحمى الديانة المزدية واعتاقها . مفاتيح العلوم (٦٥) .

(٤) القينات ، مفردتها قينة : وهى الأمة المغنية الجميلة .

(٥) أى الحكيم والخبير .

(٦) الشام : وقيل الشام ، وسميت بذلك لكثرة قراها ، وتدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «(الشام صفوة الله من بلاده ..)» .

الحديث . معجم البلدان (٦٩٤٦) .

(٧) الجلالة : من ولد يافت بن نوح عليه السلام وهو الأصغر من ولد نوح ، وبلدهم جليقية ، الروض المعطار (١٦٩) معجم البلدان (٣٢٠٥) .

الدهن الصينى الذى إذا دهنت به الجراحات برئت ولندملت فى الحال .

قال محمد عفا الله عنه : قد رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا هذا الدهن المذكور وحدثنى بعضهم أنه امتحنه بأن شرح اللحم ودهنه منه فالتأم مكانه ، فكان ذلك الوزير فى مسيره نحو بلاد الروم وبعد ما دخلها ، يداوى الجرحى بأدوية يضيف إليها شيئاً يسيراً من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة ، فإذا عنى بواحد من نوى الأقدار داواه بذلك الدهن صرفاً فيبرأ مكانه ولا يأخذ على المداواة أجراً ، فأنشر له فى البلاد ود وصيت بالعلم والزهد .

وكان يقال : من غرس العلم اجتنبى النباهة ، ومن غرس الزهد اجتنبى المحبة ، ومن غرس الوقار اجتنبى المهابة ، ومن غرس المداراة^(١) اجتنبى السلامة ، ومن غرس الكبر اجتنبى المقت^(٢) ، ومن غرس الحرص اجتنبى النذل ، ومن غرس الطمع اجتنبى الخزى ، ومن غرس الحسد اجتنبى الكمد^(٣) .

وكان يقال : الأمم على اختلاف أديانها وأزمانها وبلدانها متفقة على حمد أخلاق أربعة : العلم ، والزهد ، والإحسان والأمانة .

قيل : فانطلق سابور ووزيره منفردين إلا الوزير يراعى أحوال سابور أشد المراجعة ، فلم يزا على ذلك حتى طوفا جميع الشام ، وتجاوزا الدروب وقصدا القسطنطينية^(٤) ، فقدماما ، فذهب الوزير إلى البطرك - وتفسير هذا الاسم ، أبو الآباء - فاستأذن عليه فأذن له وسأله عما يريد فأخبره أنه هاجر من أرض الجلائقة لينتشر بخدمته ويدخل فى أتباعه ، وأهدى إليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك ، فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته ، واختبره فوجده لبيباً فأعجبه غاية الإعجاب وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ليصحبه بما يوافقه ويتفق عنده ويحسن موقعه منه .

(١) الحيلة والنفاق .

(٢) البغض والكراهية .

(٣) الحزن الشديد والهم .

(٤) القسطنطينية : مدينة عاصمة بيزنطة القديمة أو الدولة الرومانية الشرقية . بناها قسطنطين الأول وجعلها مقر حكمه . معجم البلدان (٩٦١٣) .

وكان يقال : إذا أردت صحبة رئيس ، فانظر ما يستميله ويتفق عنده من الآلات فإن كنت مطيقا للعمل بها فى طلب إقباله عليك وحظوتك عنده ، فاقدم عليه وإلا فَرَضْ نفسك على ذلك حتى تعلم أنها قد أطاقتَه وأحكمتَه فتقدم على بصيرة .

قيل : فلما تأمل وزير سابور أخلاق البطرك وجده مائلا إلى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار ، فأخذ الوزير فى إتحافه من ذلك بكل نادرة غريبة ، وملحة عجيبة، فلم تطل المدة به فى صحبته حتى حلا بعينه وقلبه ، وصار ألصق به من شعرات قصه^(١) ، وجعل مع ذلك يعالج الجرحى ولا يأخذ على ذلك عوضا ، فعظم قدره فى الناس ، وومقته^(٢) القلوب .

وكان يقال : إذا كانت القلوب مجبولة على مقة المحسنين كانت المحبة رقا، والأحرار يكرهون الاسترقاق ، فالحر على الحقيقة من فدى نفسه من رق المحسنين بمكافأتهم على إحسانهم جهده ، حتى إذا لم يستطع فليُرَقْ نفسه لهم معذورا ، وجعل الوزير يتعهد أحوال سابور فى كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة حشر إليها الناس على طبقاتهم وتهدد من تخلف عنها ، فأراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قصر قيصر وسمته وذخائره ، فنهاه وزيره عن التفرير بنفسه فعصاه ، وتزيا بزي ظن أنه يستر به أمره ، ودخل دار قيصر مع من حضر ، وكان قيصر لما بلغه ما أيد الله به سابور من لطف الفطنة ، وعظم الهمة ، وشدة البأس فى حال صباه حذره حذرا شديدا ، فبعث إلى حضرته بمصور ماهر ، فحكى صورة سابور فى مجلسه وحال ركوبه ، وغير ذلك من ضروب الأحوال التى شاهده المصور عليها ، وقدم بتلك الصور على قيصر ، فأمر قيصر بأن تصور تلك الصور على فرشه وستوره^(٣) ، وفى آلات أكله وشربه ، فصنع ذلك على ما أمر به ورسمه^(٤) .

ولما دخل سابور دار قيصر واستقر فى مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس، أتوا بالشراب فى كؤوس البللور والفضة والزجاج المحكم ، وكان فى

(١) القص : عظم الصدر ، المراد : أى قريب إلى قلبه ونفسه .

(٢) أحبته وتوددت إليه .

(٣) الستور ، مفردها الستر : ما يستر به المرء عند نومه .

(٤) أى كتبه .

المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم نو فراسة صادقة ، فلما وقعت عينه على سابور أنكره ، وجعل يتأمل شخصه ونظرته فرأى عليه مخايل الرياسة ، فطفق يستشفه ولا يصرف بصره عنه ، فأتى ذلك المتفرس الرومى بكأس فيها صورة سابور ، فتأملها فانطبعت في نفسه إنها مثال ذلك الشخص الذى أنكره ، وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدرح في يده إمساكا طويلا ، ثم قال رافعا صوته : إن هذه الصورة التى فى هذا القدرح تخبرنى أمرا عجيبا ، فقال له : ما الذى تخبرك هذه الصورة ؟ قال : تخبرنى أن الذى هى مثال له معنا فى مجلسنا هذا ، ونظر إلى سابور وقد تغير حين سمع مقالته فحقق ما ظنه به وأعاد القول ، فبلغ كلامه قيصر فأدناه وسأله ، فأخبره أن سابور معه فى مجلسه ، وأشار إليه فأمر قيصر بالقبض على سابور ، فقبض عليه ، وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل ، فقال ذلك المتفرس : لا تقبلوا عذره فهو سابور لا محالة ، فأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك ، فاعترف لهم بأنه سابور

وكان يقال : قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار ، وطالما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات .

وقيل : كما أن الأبصار مرائى تتطبع فيها المشاهدات إذا سلمت من صدا الآفات ، فكذلك العقول مرائى تتطبع فيها بعض الغايات إذا سلمت من صدا الشهوات .

وقيل : من الأدلة على مكاشفة الله القلوب ببعض الغيوب أن الإنسان قد يتوقع الشيء يكرهه أو يحبه ، ثم يكون ذلك الشيء الذى يتوقع على نحو ما توقع منه ، فقد يرى الإنسان فيحبه لغير إحسان فرط منه إليه أو ييغضه لغير إساءة جناها عليه ، ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة .

قيل : ولما اعترف سابور بصدق ذلك المتفرس حبسه قيصر مكرما ، وأمر فعملت له من جلود البقر صورة بقرة كأعظم ما يكون من البقر ، وطبقت عليها الجلود سبع طبقات ، واتخذ لها باب من أعلاها فى ظهر الصورة يدخل إليها

ويخرج منه ، وجعلت فيها كوة^(١) من أسفلها فى موضع المبال ، وأمر سابور فجمعت يداه إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة؛ ليتمكن معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره ، وأدخل سابور فى جوف تلك الصورة وهذا بعد أن حشر قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس ، ووكل بتلك الصورة التى سجن فيها سابور مائة رجل من نوى الباس والقوة يحملونها دولا بينهم ، وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يضبط أمرهم ، وصرف أمر جميعهم إلى المطران — ومعنى هذا اللقب صاحب البلد ، إلا أنها رئاسة دينية ، وهو خليفة البطريرك — فإذا نزل العسكر أنزلت الصورة فى متوسط العسكر وضربت عليها قبة تسترها ، وأطاف بها خمسون من الموكلين بها ورؤساؤهم معهم ، وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها ، فكان فى كل قبة خمسة ورؤسائهم معهم ، وضربت للمطران قبة بمجاورة قبة سابور ، وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقبة سابور على حسب أقدارهم ومراتبهم ، وسار قيصر محتفلا فى جنوده وقد عزم على إخراج بلاد الفرس وتغية^(٢) معالم ملكهم لعلمه أن لا دافع يدفعه عنهم.

وكان يقال : الحزم التزام مداواة^(٣) العدو مادامت لدولته ريح إقبال ، كما أن العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرت دولته وركنت ريح إقباله .
وكان يقال : العاقل لا يكون فى سلطان ملك اجتمعت فيه خصلتان :
الانهماك فى الذات ، وإضاعة الفرص .

وكان يقال : تميز الملوك عن السوقة إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات ، وفضيلة ذات الملك بخمس خصال : رحمة تشمل رعيته ، وبقطة تحوطهم، وصوله^(٤) تذب عنهم ، ولبابه^(٥) يكيد بها الأعداء ، وحزامة ينتهز بها الفرص ، فهذه فضيلة الذات .

(١) خرق أو ثقب .

(٢) محور أو آلة .

(٣) مداراة ومداينة .

(٤) سطوة وقدر .

(٥) عقل وحكمة .

وأما فضيلة الأدوات فباتخاذ المباني الوثيقة العلية ، والملابس الأنيقة السرية^(١) والذخائر النفيسة السنية ، والمطاعم الشهية والمراكب البهية ، فهذه فضيلة تفضل بها هذه الأدوات على ما دونها من أجناسها ، فيكون للقصر فضل على غيره من القصور ، وللثوب فضل على غيره من الثياب ، وللذخيرة فضل على غيرها من الذخائر ، وللطعام فضل على غيره من الأطعمة ، وللدابة فضل على غيرها من الدواب ؛ فالفضيلة لهذه الأشياء لا لمالكها .

قيل : فلما سار قيصر^(٢) بجنوده ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها ، قال وزير سابور للطريق : إن مما استفتدت بخدمتك والقرب منك الرغبة في صالح الأعمال وإنه لا عمل أنفس من تنفيس كربة عن مجهود^(٣) ، وجر نفع إلى مضطر ، وقد علمت كفايتي في معاناة الجرحى ، وإن نفسي لتتأزغني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا ، فلعن الله أن يستغنى بي نفسا صالحة بترحم على من أجلها ، ويقدر قلبي بخدمتها ويحفظني لها ، فكره البطرك ذلك وقال له : قد علمت إنى لا أستطيع فراقك ساعة فكيف تطالبني بالسفر البعيد عنى ، ما ظننت أنك تلقانى بما أكره ، وتسومنى ما يشق على احتماله ، كما لم أكن أظن أنك تؤثر شيئا من الأشياء على القرب منى والتحبب إلى ، فقد أزلتني عن حسن ظنى بك ، ولم يزل الوزير يضرع إلى البطرك ويتملقه^(٤) ويقرب له العود إلى أن سمح له بذلك ، فأذن له وزوده وكتب معه كتابا إلى المطران يخبره أنه قد بعث إليه سويداء قلبه وسواد بصره ، فلتحله من نفسك بأعلى المراتب واستصنىء برأيه فيما أشكل عليك ، فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله معه فى قبته ، وجعل زمام أمره ونهيه بيده ، وجعل الوزير يتفق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل إليه ويطرفه كل ليلة

(١) أى الخالصة الجميلة .

(٢) قيصر : من كبار رجال الدولة والقواد فى روما . أعاد تنظيم الإدارة الرومانية . تأمرت عليه الطبقة الأرستقراطية فى مجلس الشيوخ فاغتيل . له تاريخ حرب الغال والحرب الأهلية . مفاتيح العلوم (٧٠) .

(٣) مكروب ذو محنة .

(٤) يتودد ويتلطف إليه .

بأخبار ممتعة ، رافعا بها صوته لسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه ما يحب أن يعلمه سابور من الأخبار ويفطنه له من الأسرار ، فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة ، وكان الوزير قد أعد لتخليص سابور أنواعا من المكاييد^(١) رتبها وأسسها عندما قدم على المطران .

وكان يقال : من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط، وإن أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح ، وإنما كانت فطن الوزراء أنقب من فطن الملوك ؛ لأن الملوك يتفقهون أبدا فى سياسة من دونهم من الرعايا لا غير، والوزراء يتفقهون فى سياسة الملوك وسياسة الرعايا ، فهم أشبه شئ بالجوارح التى تصيد وتفترس ويصيدها أيضا جوارح أشد منها ، فهى أعرف الجوارح بمكاييد الاحتراس ومكاييد الاكتساب .

وكان يقال : أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجوز وقوعه ويمكن كونه عدة ، فإذا وقع الأمر قابله بما كان أعده له ، وأسوأ الوزراء حالا من توكل على لطف فطنته وقوة حيلته ودربته وممارسته ، فترك الإعداد للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه ، وإنما هو فى ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول وإعداده وترويته توكلا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله ؛ فيوشك أن يستولى عليه العى والحصر^(٢) فى بعض مقاماته ، وبمنزلة من ترك حمل السلاح توكلا على قوة بدنه وشجاعة قلبه ، فيوشك أن يظفر به عدوه فى بعض المواطن .

قيل : وكان من المكاييد التى أعدها وزير سابور أنه امتنع من مواكلة المطران، وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذى زوده البطرك طعاما غيره ؛ لما يرجو من بركته وبركة الاغتذاء به ، فكان إذا حضر طعام المطران أخرج هو من ذلك الزاد فانفرد بالأكل منه ، فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس ، فأكثر فيها القتل والسبى ، وتغویر^(٣) المياه ، وقطع الشجر ، وإخراب القرى والحصون، وهو مع ذلك يواصل السير مبادرا ليستولى على

(١) المكاييد ، مفردا مكيدة : وهو المكر والحيلة .

(٢) أى العجز عن الكلام .

(٣) أى إذهاب وتضييع الماء فى الأرض .

ملك سابور ، وبيّغت^(١) من بها من رؤساء الفرس قبل أن يملكوا عليهم رجلا ، ولم يكن للفرس همٌ إلا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعقل ، فلم يزل قيصر على ذلك حتى بلغ مدينة سابور وقرارة ملكه وهى المسماة جنديسابور^(٢) فأحاط بها جنوده ، ونصب عليها المجانيق^(٣) ، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة فى دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها ، وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل مما يعلمه إياه وزيره ويدسه فى أحاديثه من الإشارات والرموز والكنائيات ، وكان سابور لم تسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر فى تلك الصورة .

فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جندى سابور وقد ثلم الأسوار^(٤) بالمجانيق ، وأشرف على افتتاح المدينة ؛ عيل صبره^(٥) ، وساء ظنه بوزيره وجزع ويئس من النجاة مما هو فيه .

فلما جاء الموكل بطعامه قال له : إن هذه الجامعة قد نالت منى منالا عظيما وضعفت منها ، وسمعتها وزير سابور ؛ فعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصده سابور .

فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له : لقد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة ، ولوددت أنى كنت حدثته للبطرك قبل سفرى عنه فقال له المطران : إنى راغب إليك أن تحدثنى به الليلة أيها الحكيم الراهب .

فقال الوزير : نعم وكرامة ، ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور فقال : إنه كان عندنا بجليقية^(٦) فتى وفتاة فى نهاية الحسن والظرف ، اسم الفتى ما معناه : عين أهله ، واسم الفتاة ما معناه : سيدة النار ، وكانا زوجين

(١) يفاجىء .

(٢) جند يسابور : مدينة إيرانية فى إقليم خورستان بناءها سابور بن أردشير فسببت إليه . وهى مدينة خصبة واسعة الخير بها النخل والزروع والمياه . معجم البلدان (٣٢٧٢) .

(٣) المجانيق ، مفردا منجنيق : وهى آلة حربية ترمى بها القذائف .

(٤) أى هلك وهدم .

(٥) أى نفذ صبره .

(٦) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس فى أقصاه من جهة الغرب ، معجم البلدان (٣٢٠٥) .

مؤتلفين متحابين لا يبتغى أحدهما بالآخر بدلاً ، وإن "عين أهله" جلس يوماً مع أصحاب له يتحادثون فتذاكروا النساء إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع والظرف الرائع اسمها ما معناه : سيدة الذهب فوقع بقلب عين أهله ميل إليها، فسأل الواصف لها عن منزلها فنكر له أنها بقرية غير قرية عين أهله ، ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها وطمحت نفسه إليها طموحاً شديداً .

وكان يقال : العقل كالبعل ، والنفس كالزوجة له ، والجسم كالبيت لهما ، فإذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطا اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرأة التى قهرها بعلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها فصلحت الجملة ، وإذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعى النفس فاسدا ونزاعاتها مضمومة كفعل المرأة التى قهرت بعلها .

قيل : فانطلق "عين أهله" إلى القرية التى تسكن بها سيدة الذهب ، وطلب منزلها حتى عرفه ، ولم يزل يتردد إليه حتى رآها فرأى منظراً عجيباً ولم تكن أحسن من امرأته . ولكنه كان يقال : من ضرورة النفس أن تحن إلى التنقل فى الأحوال إذا كانت نقلت بالتركيب إلى عالم الكون ، ثم تنتقل بالتفريق إلى عالم الفساد ، وما افتتح أمره واختتم بالنقلة ، فالبقي الأحوال بتوسطه للنقلة ، ونازعت عين أهله نفسه إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب فلزم المعاودة إلى منزلها والتمتع بتأملها حتى فطن له بعلها ، وكان جليقياً غليظ الطبع ، قاسى القلب شديد البطش يسمى : الذئب ، فرصد عين أهله حتى مر به ، فلما رآه وثب عليه فقتل فرسه ، ومزق ثيابه ، وتعتقه^(١) وعنف عليه ، واستعان بأصحاب له ، فاحتملوا عين أهله وأدخلوه إلى دار الذئب وربطوه إلى سارية فى بيت من بيوتها ، ووكل به الذئب عجوزاً قطعاء اليد ، جدعاء الأنف^(٢) ، عوراء العين ، شوهاء الحالة ، فلما جن الليل أوقدت تلك العجوز ناراً بالقرب من عين أهله ، وجلست تصطلى^(٣) ، فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز ، فزفر

(١) ضربه بعنف .

(٢) أى مقطوعة الأنف .

(٣) تستدفئ .

زفرة عالية ، فأقبلت عليه العجوز وقالت له : أيها الفتى : ما ذنبك الذى أوردك مورد الذلة والشدة ؟ .

فقال عين أهله : ما علمت أن لى ذنبا . فقالت العجوز : هكذا قال الفرس للخنزير فلم يصدق الخنزير ، ثم باحثه عن أمره ؛ فظهر ما خفى منه وعلم صدق ظن الخنزير ، فقال عين أهله للعجوز : إن رأيت أن تحدثينى بذلك وكيف كان فإنك تحسنين إلى به .

فقالت العجوز : ذكروا أن فرسا كان لرجل من الشجعان فكان يكرمه ويحبه ويحسن القيام عليه ، ويعدده لمهمات ولا يصبر عنه ساعة ، وكان يخرج له فى الغدوات إلى مرج^(١) فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه^(٢) ، فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده ، وأنه خرج به يوماً إلى المرج ونزل عنه ، فلما استقرت قدمه على الأرض نفر الفرس وجمع وممر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه ، وغاب عن عينه عند غروب الشمس ، فرجع الفارس إلى أهله وقد ينس من الفرس ، ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع ، فرام^(٣) أن يرعى ، فمنعه اللجام ، ورام أن يتمرغ ، فمنعه السرج ، ورام أن يستقر على أحد جنبيه ، فمنعه من ذلك الركابان ، فبات بشر ليلة . ولما أصبح ذهب يبتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه إلى ضفته الأخرى فإذا هو بعيد القعر فسبح فيه ، وكان حزامه ولبيه^(٤) من جلد لم يبالغ فى دبغه ، فلما خرج من النهر أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا ، واشتد عليه ، فورم لبابه ومحزمه واشتد الضرر عليه إلى ما به من الجوع ، فلبث بذلك أياما إلى أن ضعف عن المشى ، فقام فمر به خنزير فهم بقتله ، ثم عطفه عليه ما رأى به من الضعف ، فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من إضرار اللجام واللبب والحزام به ، وسأله أن يصطنع عنده معروفا ويخلصه

(١) الأرض الواسعة كثيرة العشب .

(٢) حبله وزمامه .

(٣) أراد .

(٤) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة .

مما ابتلى به ، فسأله الخنزير عن الذنب الذى استحق به تلك العقوبة ، فزعم
الفرس أن لا ذنب له .

فقال له الخنزير : كلا ؛ بل أنت كاذب فى زعمك ، أو جاهل بجرمك ، فإن
كنت يا فرس كاذبا فما ينبغى لى أن أنفس عنك خناقا ، ولا أن اصطنع عندك
معروفا ولا أن أأخذك وليا ، ولا أن ألتمس عندك شكرا ، أو أطلب فيك أجرا .
وأنه كان يقال : إذا رأيت نفس الكذاب قد تشبث بها عالم الفساد فكلها إليه ،
فإنه اللائق بها لفساد تركيبها ، والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب أنها
مضرة به ، معرضة عن الحقيقة فى الحوادث ، ونزاعة إلى العدم المحض^(١) ،
فتتصور العدم وجودا ، والباطل حقا وتصور ذلك فى نفس المغتر بها إلى
الراكن إلى قولها .

وكان يقال : احذر مقارنة نوى الطباع المرنولة^(٢) ؛ كيلا تسرق طباعك
من طباعهم وأنت لا تشعر .

وكان يقال : أصعب ما يعانى به الإنسان ممارسة صاحب لا تتحصل منه
حقيقة.

وكان يقال : لا تطمع فى استصلاح الرذل والحصول على مضافاته ، فإن
طباعه أصدق إليه منك فلن يترك طباعه لك .

ثم قال الخنزير : وإن كنت يا فرس جاهلا بجرمك الذى استوجبت به هذه
العقوبة فجهلك بذهلك أعظم منه ، فمن جهل ذنوبه أصر عليها ولم يرج فلاحه .
وكان يقال : احذر الجاهل فإنه يجنى على نفسه ، ولست أحب إليه منها .

وكان يقال : ما شئ أشبه بالكذب من الجهل ، وذلك لأن الكذاب يتناسى
الصورة والقضية المحسوستين ، ويتخيل الكذب الذى هو ضدهما حتى ينطبع
ذلك فى عقله ويترك الصواب عمدا إلى غيره ، والجاهل يرى الأشياء على
خلاف ما هى عليه ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ، وإنما الفرق بين
الجاهل والكاذب : أن الكاذب يأتى ما يعلم خطأ فيه ، والجاهل لا يعلم ذلك ،

(١) الفناء .

(٢) الخسيسة والذنيئة .

فهو على نفسه وعلى غيره أشد جنابة من الكاذب .

فقال الفرس للخنزير : ينبغي لك ألا تزهد فى اصطناع المعروف ، فقال الخنزير : إني لست بزاهد فى ذلك ، ولكنه كان يقال : العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير البائر لحبوه التى يبذر ما ذكاً^(١) من الأرض ، فحدثنى يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لأعلم من أين دهيت ، فحدثه الفرس بجميع أمره وكيف كان عند فارسه ، وكيف فارقه وما لقى فى طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير .

فقال له الخنزير : قد ظهر لى الآن أنك جاهل بجرمك وأن لك ذنباً ستة ، أولها : خذلاتك فارسك الذى أحسن إليك وأعدك للمهمات ، والثانى : كفرك لإحسانه ، والثالث : إضرارك به فى طلبك ، والرابع : تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام والخامس : إساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذى لست له أهلاً ولا لك عليه مقدرة ، والسادس : إصرارك على ذنبك وتماديك فى غوايتك ، فقد كنت متمكناً من العود إلى فارسك ، والاستقالة من فارط جهلك قبل أن يوهنك اللجام بالجوع واللبب والحزام بالضنك^(٢) .

فقال الفرس للخنزير : أما إذ عرفتى ذنوبى وأيقظتنى لما كنت ذاهلاً عنه ، محجوباً بحجاب الجهل ، فانطلق الآن ودعنى فإنى مستحق لأضعاف ما أنا فيه .

فقال الخنزير : أما إذ عرفت وفطنت لهذا الغدر ، ولمت نفسك ، ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها ، واستعملت الحكمة التى وعيتها ؛ فإنك حقيق بأن ينفس عنك ، وإنه قيل : إن الأب لوقاً^(٣) كتب على باب بيته : إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف عند قدرها ، فمن كان بهذه الصفة ؛ فليدخل وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة .

ثم إن الخنزير قطع عنان اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس .

(١) أى ما جاد وحسن من الأرض .

(٢) الضيق والضعف .

(٣) لوقا : قديس إنجيلي . رفيق بولس الرسول فى أسفاره . كان طبيباً كتب إنجيله نحو ٦٧م . وهذا مما يدعيه رهبان وأنصار المسيحية .

قال : ولما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز ، وفهم ما ضربت له من الأمثال أقبل على العجوز وقال لها : قد صدقت فيما نطقنت وضربت لى مثلاً كشف لى عن جليلة أمرى^(١) ، وأفدنتى حكماً لا كفاء لها ، وأدبتى فتأدبت ، ووعظنتى فاتعظت ، ثم حدثها حديثه ، ورغب إليها فى أن تمن عليه بالاصطناع وتطلعه كما فعل الخنزير بالفرس .

فقال له العجوز : إنك غر^(٢) لا بصيرة لك بالأمر ، وإن الذى سألتنى لا يمكن فعله الآن ولعلنى أن أجد لك فرجاً ومخرجاً مما أنت فيه ، فعليك بالصبر ، وأمستك العجوز عن مخاطبته .

قال : فلما انتهى الوزير فى حديثه إلى هذه الغاية ، أقبل على المطران وقال له : إننى أحس فى نفسى فتوراً ، وفى رأسى صداعاً ولا يمكن الليلة إتمام الحديث ولعلنى أن أكون فى الليلة القابلة نشيطاً إلى ذلك قديراً عليه ، فأكمل مسرتك بإكماله ، ونهض إلى مضجعه .

فجعل سابور يتصفح^(٣) حديث وزيره ، ويتأمل الأمثال التى وصفه بها ففهم أن الوزير كنى عنه بعين أهله ؛ لأنه ملك فارس . وكنى عن مملكته وإقليم بابل بسيدة النار ؛ لأن رعيته يعبدون النار ، وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب ، وكنى عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى سيدة الذهب ، وكنى عن أخذ قيصر له بقبضة الذئب على عين أهله ، وقصد بما ضربه له من الأمثال الحكيمية ؛ تأديبه على شرهه وتغريره بنفسه ومخالفة أصحابه ، وكنى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذلّه فى خدمة المطران وطلبه مرضاته وتملقه بالعجوز القطعاء الجدعاء العوراء المشوهة الخلق ، وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه فى ذلك الوقت ، وأنه ساع فى خلاصه ، فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعادته ثقته بوزيره واستروح ربح الفرج ، ولبث بذلك ليلته ووعدها الليلة القابلة .

(١) أى حقيقة أمرى .

(٢) الغر : من لا خبرة له .

(٣) يتأمل ويتدبر .

فلما تعشى المطران وأخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور : أيها الراهب الحكيم أخبرني ما كان من أمر عين أهله وكيف ننان عاقبة شدته ، وهل خلصته العجوز من وثاق الذنب أم لا ؟ ، فإن نفسى إلى علم ذلك متطلعة وأراك الليلة صالح الحال .

فقال الوزير : سمعاً لقولك وطاعة لأمرك ، ثم أقبل عليه يحدثه فقال : إن عين أهله أقام على حالته موتقاً طول ليلته تلك ، فلما أصبح دخل عليه الذنب فتهدهد بالقتل وزاده إلى وثاقه قيلاً ثقيلًا وخرج عنه ، فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأمانى ، فلما جنه الليل قلق واستوحش وبكى وانتحب وجاعت العجوز فأضرمت ناراً قريباً منه وجلست تصطلى .

ثم أقبلت على عين أهله فقالت له : تعز واصبر وانكر مصائب الناس فتأس بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى فى حفظ نفسك ، فقال لها عين أهله : لقد صدق القائل هان على الطليق ما لقي الأسير ، فقالت له العجوز : أيها الفتى ، إن حداثة السن قصرت بك عن إدراك كثير من الحقائق ، أفتسمع حديثاً لك فيه سلوة؟ قال : نعم فأنعمى على به .

فقالت العجوز : نكروا أن تاجراً مكثراً كان له ابن ليس له غيره ، وكان شديد المحبة له والشغف به فأنحفه بعض معارفه بغزال فرخ صغير ، فعلق به قلب الغلام ولد التاجر فكان لا يفارقه ، وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حلياً نفيساً ، وارتبطوا له شاة ترضعه حتى اشتد الغزال وشدن نجم قرناه^(١) ، قال الغلام لأهله : ما هذا الذى فى رأس الغزال ؟ قالوا : قرناه ، فأعجبه سوادهما وبريقهما ، فقيل للغلام : إنهما سيكبران ويطولان حتى يكون صفتهم كيت وكيت ، فقال الغلام لأبيه : أحب أن أرى ظبياً له قرنان كبيران ، فأمر أبوه فصيد له ظبى ثنى السن^(٢) ، قد استكمل قوة ونموا ، فأعجب به الغلام وكرمه أهله وحلوه وأنسوه^(٣) فأنس ، وألف الغزال الظبى للمجانسة الطبيعية .

فقال الغزال للظبى : ما ظننت - قبل أن أراك - أن لى فى الأرض شكلاً ،

(١) أى قوى واستغنى عن أمه .

(٢) أى نبتت أسنان مقمة فمه دلالة على نموه .

(٣) استأنسوه .

ثم لما رأيته وقع فى نفسى أن لى أشكالا سواك ، فقال له الطبقى : نعم ، إن أشكالا لك كثيرة ، فقال له الغزال : أين هى ؟ فأخبره الطبقى بتوحشها وانفرادها فى فلولات^(١) الأرض فرارا من الناس ، وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتتاسلها ، فارتاح الغزال لما سمع من الطبقى ، وتمنى أن يراها فيكون معها ، فقال له الطبقى : هذه أمنية لا خير لك فيها ، وأنت نشأت فى رفاهية العيش ، وأمنة لا تعرف غيرها ، ولو حصلت فيما تمنيت لندمت .

وإنه كان يقال : ثلاثة من لم ينزلها منزلتها ويرع لها حقها أسرع مفارقتها والتحول عن قربها ، وهى : الملوك ، والعلماء ، والنعم .

وكان يقال : الأمانى فى الشدة ارتياح ، وفى الرخاء جماح^(٢) ، فلا ينبغي أن يأذن العاقل لنفسه من الأمانى إلا فى المقدار الذى يؤنس الوحشة وينفس الكربة ، فإن استيلاء الأمانى على النفوس ؛ كتأمر السفلة الذين يعيدون الرؤوس أعجازا^(٣) والأعجاز رؤوساً ويسعون فى قلب الأعيان وتغيير صورة الصواب ، فقال الغزال للطبقى : لابد لى من أشكالى ، فلما رأى الطبقى أن الغزال غير منته وخاف عليه أن يقطع به قبل بلوغه ما تمناه ؛ لأنه غر لا يعرف التحرز من مكاييد النفس لم يجد بدا من أتباعه والكون معه ليقضى حق حرمة ألفته إياه ، فرصدا حيناً يمكن فيه الفرار وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء . فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو ولا يثنيه شيء ، حتى سقط فى أخدود ضيق قد قطعه السيل فلبث فيه وانتظر أن يأتيه الطبقى ليخلصه فلم يأت به فبقى هنالك .

وأما ولد التاجر ، فإنه أصبح وعدم الغزال والطبقى وجزع لفقدتهما وأشفق أبوه عليه ، فاستدعى كل من يعانى الصيد بذلك البلد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الطبقى والغزال ، ووعد من وجدتهما وعدا مرغوبا فيه ، فانبثوا^(٤) فى سهل الأرض وحزنهما^(٥) يطلبونهما ، وركب التاجر دابته ، وفرق أتباعه على أبواب

(١) الفلولات ، مفرداها : فلاة وهى المساحة الواسعة من الأرض الفضاء .

(٢) انهزام وضعف .

(٣) الأعجاز ، مفرداها : عجز وهو مؤخرة الشيء ، والمراد : قلب الأمور رأساً على عقب

(٤) الانبثا : الانتشار والتفرق والمراد : جدوا فى طلبهم والبحث عنهم .

(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض وصعب .

المدينة ينتظرون من يأتي من الصيادين ، رانطلق هو وعبدان من عبده حتى أتوا الصحراء فرأى على بعد رجلا مكباً على شيء بين يديه فأسرع نحوه ، فإذا هو صياد قد أوثق ظيئاً وهو يريد نبحه ، فتأمله التاجر فإذا هو الطيبي الذي يطلبه فتخلصه من يد الصياد وأمر عبده ففتشاه ، فوجد معه الحلي الذي كان على الطيبي ، فسأله : كيف ظفر بالظبي وأين وجدته ؟ فقال : إني بت في الصحراء أتصيد فنصبت شركاً وكمنت قريباً منه ، فلما أصبح جاء هذا الطيبي ومعه غزال فمر الغزال يعدو ويمرح في جهة غير جهة الشرك ، وجاء هذا الطيبي حتى حصل في الشرك فأخذته وقصده به المدينة حياً لعلمي أنه إن رنى طولبت بما عليه من الزينة فرأيت أن أنبحه وأدخل به لحماً ، فهذا خبري .

فقال له التاجر : لقد جنى عليك شحك الخيبة والحرمات ، فماذا عليك لو أطلقتته فذهب وحصلت أنت على حلي وزينته . ولقد صدق القائل : لا يدخل الشر مدخلا إلا أعقبه المحرمة ، ولا يدخل البخل مدخلا إلا أعقبه الحسرة ، ألا ترى أن من حمله البخل والشره على أكل اللقمة التي عافتها نفسه كان متعرضاً للمحرمة بتهوع^(١) ما أكله والحسرة عليه عند مفارقتة .

ثم إن التاجر بعث بالطيبي إلى ولده مع أحد عبديه وقال للصياد : ارجع معي فأرني الجهة التي رأيت الغزال سعى نحوها ، فرجع به إلى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويتشوف على المواضع المرتفعة ومشى التاجر على رسله^(٢) ، فسمع تربييب الغزال - وهو صوته - فصاح به التاجر ، فلما سمع الغزال صوته عرفه ، فصوت واتبع التاجر الصوت حتى غام عليه وإذا هو في أخدود^(٣) أي شق في الأرض - منتشبا فيه^(٤) ، فأخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ، ورجع التاجر بالغزال إلى ولده وكملت مسرة الغلام ، وجعل الغزال يتجنب الطيبي إذا رآه ولا يألفه كما كان ، وإذا حصل معه في موضع نفر منه أشد النفار ، فتغصت مسرة الغلام لذلك وجهه أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الغزال والطبي على حال ألفه وسكون ؛ فلم يقدروا على ذلك فبينما الغزال

(١) تقيء من غير تكلف .

(٢) أي على مهل ورفق .

(٣) حفرة مستطيلة .

(٤) متعلقاً .

يوما نائما فى بيت ، دخل عليه الطبى فعاتبه على نفااره منه وطول هجرته له ، فقال له الغزال : أنسيت غدرك بى أحوج ما أكون إلى عونك ؟ ، فقال له الطبى : إنى لم أغدر ولم أخن ولكن عدم رسوخك فى علم التجربة أوقعك فى تهمة البرىء ، وإنى لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه إلا مضطرا إلى التأخر عنك عاجزا عن المبادرة إليك ، وقص عليه قصته وأنه حصل فى شرك الصياد ، فعلم الغزال عذره وعاد إلى تألفه .

قال : فلما سمع عين أهله حديث العجوز ، وفهم ما أرادت به من نكر عجزها عن تخليصه أمسك عن خطابها .

قيل : فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحد سكت ، فقال له المطران: أيها الحكيم الراهب : ما هذا السكوت ، لعلك تريد أن تؤخر إخبارى بما كان من عاقبة عين أهله ، وما لقى من الذنب ، وما صنعتته معه العجوز .

فقال له الوزير : إنى لعازم على ذلك لفتور أجده فى أعضائى ، فقال له المطران : لا تفعل فإن ذلك يسوعنى ويشق على ، فاحمل لى على نفسك الليلة أيها الحكيم ، فإنى راغب فى تأنيبك ، معجب بأحاديثك ، فقال الوزير : أفعل ذلك طالبا لمرضاتك ، ولو علمت أيها المطران ما ادخرت لك من عجائب الأخبار وغرائب الأسرار لعجبت من ذلك أشد العجب ، ثم اندفع يحدثه ، فقال : إن عين أهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما أرادته أمسك عنها وبات ليلته تلك بأسوأ حال ، ولما أصبح دخل عليه الذنب فقال منه ، وتعتعه وعنفه وتهدهه بالقتل وزاده قيذا إلى قيده ، وعرفه أن لا ناصر له عليه ولا مخلص له من يده وخرج عنه ؛ فجعل يعال نفسه نهاره ويمنيها الفرج ، فلما أقبل الليل استوحش واحتوشته الأفكار المريضة ، وانتظر أن تجلس إليه العجوز أو تحادثه فلم تفعل ، وجعلت العجوز تكثر الدخول إلى البيت الذى فيه عين أهله ولا تستقر فيه ؛ فساء ظن عين أهله وأيقن بالهلكة وما شك أن الذنب يقتله تلك الليلة ، فأقبل على البكاء حتى ذهب صدر من الليل ، ثم قال للعجوز : ما لك لم تؤنسنى هذه الليلة بحديثك ولا جلست إلى ؟ ، فجلست إليه وقالت له : أما كان لك فى رؤيتى قضاء جعاء مشوهة عوراء سيئة الحال ما يحملك على التأسى والتسلى وحمد الله وشكره على سلامة نفسك ومعافاةك من بلاء هو أعظم من بلاتك حتى قلت : هان على الطليق ما لقى الأسير ؟ ، ولو اعتبرت باطن حالى بما ظهر لك منها

لعلمت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع إلى أحدثك حديثي .

اعلم أيها الفتى أنى كنت زوجة لبعض الفرسان ، وكان بى محسنا وبى رفيقا ولى محبا ، فكنت معه فى أرغد عيش ، وأهناه فلبثت بذلك مدة طويلة وولدت له أولادا ذكورا وإناثا ، فكبروا فى رفاهية ونعمة ؛ فغضب الملك على زوجى لأمر كان منه فقتله وقتل ذكور أولادى ، وباعنى أنا وبناتى مفترقات ، فاشترانى هذا الفارس الذى عدا عليك واحتشنى إلى هذه القرية ، وأساء إلى وكلفنى من العمل ما لا طاقة لى به ، وأكثر معاقبتى على غير ذنب لما طبع عليه من القسوة والفظاظة^(١) ، فسألته مرارا أن يرفق بى ، واستعنت عليه بإخوانه ومن يكرم عليه لكى يخفف عنى أو يبيعنى ، فلم يزد السؤال إلا قسوة على وإضراراً بى ، فلبثت بذلك سبع سنين ، ثم فررت منه فتبعنى فأدركنى فجدع أنفى ، ثم عاود قسوته على وإضراره بى وعادوت مسألته والاستشفاع إليه وهو مقيم على سوء رأيه فى ، فمكثت بذلك سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فظفر بى ففقا عيني ، ثم عاود عنفى ، فمكثت سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فأدركنى فقطع يدى ، وقال لى: إنما بقى لى من أعضائك الذى أنتفع بها عينك ويدك ، فإن فررت بعد هذا قطعت رجلك معا وأبقيتك ، أنتفع بعينك فى الحراسة وبيدك فى العمل ، وأقسم على ذلك بغليظ الأيمان وعادود عنفى ومضرتى ، وقد عزمت على أن أخلصك الليلة وأقتل نفسى بيدى طلباً للراحة مما أنا فيه ، ولهذا رأيته أكثر الدخول إليك والخروج عنك ، وإنما ذلك لحيرتى وجزعى من الموت وقد طابت نفسى على الموت ، ثم إنها فتحت قيود عين أهله ، وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً ، فقال لها عين أهله : ما تصنعين به ؟ قالت أقتل نفسى ، فقال لها عين أهله : لئن تركتك تقتلين نفسك فقد اشتركت فى دمك ، وانتزع السكين من يدها وقال لها: اذهبي معى لكى ننجو معا أو نعطب معا ، فقالت له : إن كبر سننى وضعف حالى ليمنعانى من اتباعك والهرب معك ، فجزاها عين أهله خيراً بما صنعت واتخذها أما يسمع لها ويطيع ، فهذا ما بلغنى من ذلك ، فقال عين أهله : إن الليل متسع والموضع الذى نأمن فيه إذا وصلنا إليه قريب وبى قوة على حملك ، فقالت العجوز: أما إذا عزمت

(١) اللفظ ، جمعها أفضاظ : وهو الغليظ السىء الخلق الخشن الكلام .

على هذا فإني لا أحوجك إلى حملى مادامت بى مسكة^(١)، وخرجا معا ، فلم ينقض الليل حتى بلغا إلى حيث أمنا .

فقال المطران : ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ، ولقد وددت أن لا أفارقك أبدا وإن سفرى هذا يطول لتطول متعتى بك ويعظم حظى من أنسك ، ولقد استعذبت مفارقة الأهل والوطن لقربك ، ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه .

وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ، ففهم أن الغزال مثل لسابور وأن الظبى مثل للوزير ، وأن خروج الظبى مع الغزال إلى الصحراء وحصول الغزال على الأخدود مثل لصحبة سابور ووزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر ، وأن نفار الغزال عن الظبى مثل لسابور .

وظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه ، وعرف أن الوزير قد عزم على تخليصه والخروج به إلى المدينة ليلاً ، وأن المدينة قريبة منه وأنه يحمله إن عجز عن المشى ، فأيقن سابور بقرب الفرج .

ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ فيها طعام المطران والموكلين بحفظ سابور على حال خلوة ، فألقى فى جميع الأطعمة مرقداً^(٢) قوى الفعل ، ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به عادته ، فلم يكن إلا ساعة حتى استحوذ المرقد على جميعهم فأنجدلوا^(٣) فى مواضعهم صرعى على مراصدهم ومضاجعهم ، وبادر الوزير ففتح باب الصورة عن سابور ، واستخرجه وأزال الجامعة من عنقه ويديه ، وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر ، وقصد به جندى سابور ، وهى مدينة ملكه ، فأنتهيا معا إلى سورها ، فصرخ بهم الموكلون بحراسة السور فقتلهم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وعرفهم بنفسه ، وأعلمهم بسلامة ملكهم ، فابتنروا وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها ، وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح ، وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم فإذا ضرب الروم

(١) ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب .

(٢) دواء يرقد شارب كالأفيون أى مخدر .

(٣) أى وقعوا على الأرض .

نواقيسهم^(١) الضرب الأول؛ خرجوا من المدينة واقتربوا من عسكر الروم وقاموا على تعبئة وتأهب ، حتى إذا ضربت النواقيس الضرب الثانى حملوا بأجمعهم كل فرقة على من يليها فامتثلوا أمرهم ، وانتخبوا لسابور كتيبة عظيمة فيها أشجع أساورته وقام معهم فيما يلى الجهة التى فيها أخبية قيصر .

فلما ضربت النواقيس المرة الثانية حملوا من كل جهة ، وقصد سابور أخبية^(٢) قيصر ولم يكن الروم متأهبين ؛ لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وأنهم قد بنوا أبواب مدينتهم ، فما شعروا حتى دهمتهم الفرس وأخذ سابور قيصر أسيراً ، وغنم جميع عسكره واحتوى على خزائنه ولم ينج من جنوده إلا الشرير^(٣) .

وعاد سابور إلى قرار ملكه ، فقسم الغنائم بين أهل عسكره ، وأفاض الصلات على جميع من فى مدينته بقدر أحوالهم ، وأحسن إلى حفظة ملكه وشرفهم وفوض جميع أمره إلى وزيره الذى تخلصه ، ثم أحضر قيصر فأكرمه ولطفه وقال له : إني مبق عليك كما أبقيتني ، وغير مجازيك بتضييق محبسى ولكنى آخذتك بإصلاح جميع ما أفسدت من جميع ممالكى ، فتبنى ما هدمته ، وتغرس مكان كل نخلة قطعتهما من بلادى زيتونة ، وتطلق كل من فى مملكتك من أسارى الفرس ، فضمن له قيصر ذلك كله ووفى له به ، ولما انتهى فى الإصلاح إلى بناء ما انتلم^(٤) من سور مدينة جندى سابور . قال سابور لقيصر : إنما بنيته من تراب بلادك ، فأمر قيصر رعيته من الروم بحمل التراب من بلادهم إلى جندى سابور ، فرقع به ما انتلم من سورها ، ولما تم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إليه وأطلقه إلى دار مملكته بعد أن قال له : خذ أهبتك واستعد عدتك ، فإني غاز أرضك عما قريب .

(١) النواقيس ، مفردا ناقوس : وهو الجرس والصوت الذى يضرب فى الحرب .

(٢) الأخبية : مفرد خباء وهو كساء من الأبنية يكون من وبر وصوف وشعر والمراد مكان تجمع الجنود .

(٣) الذى فارق جمعهم وشملهم .

(٤) ما هدم وكسر . والمراد أنه أصلح ما فى السور من خلل .

قال محمد عفا الله عنه : قد بلغت بهذه السلوانة الغاية التي يحتملها هذا الكتاب، فالحمد لله على ما يسر من ذلك .